

ومن الأمواج والعواصف والأنواء إلى الشعاب والصخور المضيئة ، أبدع الخيال الإنساني الأسطورة البحرية لتفسير تلك الغرائب والعجائب الطبيعية .

وقد شكلت الأسطورة الأساس الأول لفنون الشعر والحكاية الشعبية والملحمة التي مزجت بين الخيال والواقع ، وكونت المصادر الأولى لمعرفة تاريخ وجغرافية الإنسانية في فجر التاريخ . ولهذا عدت الملحمة « الصيغة الأولى » للتاريخ والجغرافيا ، وعرف الشعر بأنه ضرب من « الفلسفة البدائية » ، وقدمت الأسطورة والحكاية الشعبية بعض المفاهيم الجغرافية لتفسير مظاهر الطبيعة بالخيال والخرافق ، إزاء غموضها وعجز الإنسان الأول عن تقديم التفسير العلمى لها في حينها . ولم تزل مظاهر الطبيعة التي فسرتها الأسطورة والملحمة والحكاية الشعبية والشعر ، ماثلة حتى اليوم بشكلها الواقعى بعد أن عرف الإنسان تفسيرها العلمى . وإذا « ذهبنا مع الوهم وطفنا حول البحر الأبيض المتوسط ، هذا البحر الداخلى الذى كان مرتع الخيال الوثئى ، لما وجدنا فيه موقعاً شهيراً لعظمته أو غرابته ، إلا وذكرنا بمأساة خرافية جميلة ، وبالتالي عمل رائع من أعمال الشعر أو التحت» . - كما يقول « لويس هورتيك في كتابه الفن والأدب » - وإذا « سايرنا الشواطئ على غرار البحارة اليونان أو الفينيقيين لرأينا الأساطير تترج بالموقع مزجاً حميماً . فتبدو الميثولوجيا العنيفة الأولى لعلم الجغرافيا »^(١) .

ولقد كان البحر مجالاً خصباً للتفسيرات الأدبية الأسطورية في أدب البحر ، من ملحمة الأوديسة لهوميروس والإنيادة لفرجيل - وما حفلت به الملحمة الأولى من تصوير الصراع بين بطلها أوديسيوس وبين إله البحر نبتون والمناظر الأسطورية للبحر ، وما قدمته الثانية من ملحمة بحرية عن العاصفة التي تعرض لها أسطول إينياس في البحر حتى سقوط بالينيورس في البحر فداءً للأسطول الطروادى - إلى حكايات السندباد البحرية وقصص ألف ليلة وليلة البحرية الشعبية ، وما تضمنته من حكايات عرائس البحر وجنيات البحر ومن تصوير أسطوري لعالم البحر .. إلى غير ذلك من الأنواع المختلفة التي أثرت أدب البحر على مر التاريخ ، وجمعت بين الأسطورية والواقعية والرومانسية واستهدفت اكتشاف الطبيعة البحرية وتفسيرها واستغلالها لصالح البشرية وفتح آفاق جديدة أمامها .

هكذا قاد الأدب والفن صراع الإنسان مع قوى الطبيعة ، من أجل ترويضها والسيطرة عليها واستخدامها لصالح البشرية . فكان « سلاحاً إضافياً عظيماً في الكفاح ضد قوى الطبيعة

(١) لويس هورتيك ، الأدب والفن ، ترجمة الدكتور بدر الدين قاسم الرضاى ص ٤٥ - ٤٨ .